

"مصطلحات في أصول الترجمة"

كما نقلها بأمانة أحد كبار معلّميها الأستاذ سليم الشمالي^١
قبل الرحيل ترجمة وتعريب وبعد الرحيل تعبير

بقلم بيتسا إستيفانو^٢



بين حالٍ وترحال

"كيف الحال" حيث أنت أيها المعلّم الكبير، أستاذ الترجمة والتعريب، سليم شمالي؟

سوف يستغرب القارئ حين يفتح هذا الكتاب فيطالعُه هذا السؤال يُطرح على المؤلف الذي انتقل إلى عالمٍ لا نستطيع ترجمة معانيه هنا على أرضنا الفانية. ماذا في وسعه أن يحيينا؟ وكيف نقل إليه تحياتنا بلغتنا البشريّة المحدودة ونترجمها له؟ بأيّ مصطلحات للترجمة يتمّ تعريب السؤال والتعبير عنه؟ بين تعريب وتعبير، لم يدعنا المترجم الكبير نفتقد لغة التواصل معه، فترك لنا، في

^١ أستاذ علامة في الترجمة والتعريب. وُلد في العام ١٩٢٠ وتوفي في ٣ أيلول (سبتمبر) من العام ٢٠٠٦.

^٢ رئيسة قسم علم الأديان في كليّة العلوم الدينيّة-جامعة القديس يوسف، وحائزة شهادة دكتوراه في العلوم الدينيّة.

متناول أيدينا، خلاصة رحلته الطويلة في عالم الترجمة، تلك التي تسمح لنا أن نسافر معها إلى حضارة شعبٍ آخر نستكشف فيها ثقافته الفريدة.

"مصطلحات في أصول الترجمة" هو العنوان الذي أعطاه الراحل سليم شمالي لما سيصدر كتاباً يُضاف إلى الدراسات القيمة التي تناولت الترجمة والتعريب وأصولهما، وهو اليوم في متناول أيديكم، بفضل جهود ابنته ندى شمالي^٣ التي أرادت أن تترجم خلاصة ما علمه والدها الراحل بل المنتقل في لغة الإيمان إلى عالم لا يستطيع تعبيراً بشرياً أن يترجمه.

إنّها لمن المفارقة أن نتكلم اليوم على معلّم كبير انتقل إلى العالم الآخر حيث لا حاجة إلى لغة بشرية للتواصل، وهو من أمضى حياته المهنية والعلمية في نقل معاني لغةٍ إلى لغةٍ أخرى معتمداً على ثقافة الحضارة التي تميّز كلّ واحدة منها. من ناقلٍ إلى منتقلٍ : مسيرة معلّم مثقف نقل معاني اللغة بوفاءٍ للأصل وانتقل يوماً إلى عالم الحقّ حيث تتواصل الأرواح بلغةً مشتركة واحدة موحّدة هي لغة المحبّة المطلقة، يتفاهم بها الجميع من دون وساطة أحرف وكلماتٍ وجمل ومفارقات فيما بينها حين تُنقل من شعبٍ إلى آخر. ففي هذا الكتاب الذي لن يشهد كاتبه طبعه ونشره وإصداره، خلاصة ما علمه الأستاذ الراحل الكبير سليم شمالي في الترجمة والتعريب. فمنه لنا تعريف ومنا له تعبير لا يترجم حقيقة ما نعرفه عنه، وهو الذي احتواه بحر اللغة ولم يغرق فيه بل استخدمه ليجرّ إلى العوالم التي يجب أن يرسو على شواطئها كي يعبر عن لغة سگانها المتداولة والرسمية ويعبر بها إلى عالمنا.

يُقال عن الترجمة إنّها خائنة للأصل، إلّا أنّ خيانتها أمرٌ مستحبّ على يد مترجم متمرّس، ضليع بلغتين مثل الأستاذ سليم شمالي. هي تخون الأصل والنقل وتبقى وفيّة للعقل الواهب منطّقه إلى كلّ لغة. فمن المعروف والمتداول أنّ اللغة

^٣ مسؤولة عن مكتبة كلية العلوم الدينية في جامعة القديس يوسف. حائزة شهادة الماجستير في علم النفس من قسم علم النفس، والإجازة في العلوم الدينية من المعهد العالي للعلوم الدينية في جامعة القديس يوسف.

لا مؤلّف لها، فهي وليدة شعبٍ يتفاعل مع ثقافة وجغرافية وطبيعة ومناخ ومجتمع وبيئة، وفي النهاية، يوجد لها التداول اليوميّ وتنسج مفرداتها ومصطلحاتها حاجة شعب إلى التعبير عن كيانه. فالترجمة لا تقتصر على نقل لغة فحسب، بل هي نقلٌ لحضارة وثقافة وعلم وفكر وأسلوب.

شدّد الأستاذ شمالي على منطق كلّ لغة وعلى دلالتها. فما على المترجم إلا أن يخضع لعملية "اختيار الألفاظ بحيث تكون الأقرب من الألفاظ الأصليّة من دون المساس بعبقرية اللغة المُنقل إليها، أو بمنطقها"^٤.

الحرف بالكلمة فالاسم والفعل والضمير، وفي ضمير المترجم يراغ يستمدّ خبره من لون لغة الشعب ويراعي ثقافة تميّزانه وحضارتها. الترجمة أول لغة حوار أوجدها المترجمون أيًا كانت اللغة الأم التي يمتلكونها والتي منها وإليها ينقلون. فلا ترجمة من دون يراع ينقلها ومراعاة لاختلاف لغة الآخر وفرادته.

أذكر جلسة مع الأستاذ الكبير في الترجمة، الراحل سليم شمالي، تجاذبنا فيها أطراف الحديث حول الترجمة، شريكة حياته الأخرى، بعد زوجته المربية الفاضلة. فقد رافقته الترجمة حتّى الموت، لا بل الانتقال، في تعبير إيماننا المسيحيّ. وفجأة طرح عليّ السؤال التالي: "هل تعرفين كيف نترجم إلى الفرنسيّة تعبير "الوقوف على الأطلال"؟".

"لا أعرف" كان الجواب الذي أعطيته، ختمته بنقطة وعلقت علامة استفهام في عينيّن ترمقان بعجب عالمًا من الترجمة وعالمًا في الترجمة، منتظرةً جوابه بشغفٍ. لا شكّ في أنّ الجملة محض عربيّة، فما الذي يعادلها بجملة يجب أن تكون أيضًا محض عربيّة؟ ولم يطل انتظاري فسارع بإعطائي الترجمة في الفرنسيّة: "Arrêt sur les campements".

نعم، تعبير "الوقوف على الأطلال" محض عربيّ، أوجدته الحالة البدويّة بالجزيرة العربيّة في بيئة صحراويّة كانت تنسّم بالترحال وعدم الاستقرار. إنّها،

^٤ العودة إلى ما كتبه المؤلّف نفسه في معرض حديثه عن كيفية الترجمة.

بكلّ بساطة، تعبّر عن حالة البدويّ الرحّالة الذي يضطرّ إلى أن ينقل خيمته من مكانٍ إلى آخر في البادية الشاسعة المترامية الأطراف سعيًا وراء الماء والكلأ. وحين يرحل من دياره، يترك وراءه آثارًا من إقامته المؤقتة في ذلك المكان.

وكان الشاعر العربيّ يقف على الأطلال يبكي رحيل حبيبته من ديارها مع عشيرتها نحو مكانٍ مجهول في الفيافي البيد. ولم يكن هذا حال الشاعر الغربيّ الأوروبيّ الذي تتّسم حياته بالحال المستقرّ. فلا ظمأ عنده لماءٍ تنضب ولا ببداء قاحلة تهدّده بالظمأ والحرّ الشديد، ما يُعرف بالقيظ. ففيما كان العربيّ في ترحال، كان الغربيّ في حال. فخيم العربيّ، مساكن غير مستقرّة لعشيرة مهدّدة للترحال وخيم الغربيّ، إقامة ترفيهيّة لرحلة تخييم يعود بعدها إلى مسكن مستقرّ لا يهدّده بالرحيل. من هنا، شتّان بين الوقوف على أطلال خيمة اندثرت في بادية قاحلة جرداء تركها أهلها على مضض، والوقوف أمام ما تخلفه خيمة في أرضٍ خصبة تركها أصحابها برغبة منهم لا كما يترك الإنسان مقرّ إقامته. فهم ليسوا في ترحال، ولكنهم في رحلة، وشتّان بين ترحال قسريّ ورحلة إراديّة. فمن الطبيعيّ، في هذه الحال، أن نترجم كلمة "أطلال" بكلمة "Campements" الفرنسيّة.

ومن الطبيعيّ أيضًا أن يُترجم تعبير "كيف الحال" في العربيّة إلى معنى مضادّ يشير في الفرنسيّة إلى الترحال: "Comment vas-tu?". فالعربيّ يسأل عن الحال لأنّه غير مستقرّ ويملّ الترحال وما يتبعه من عدم استقرار ولأنّه يتمنّى الحال والاستقرار - فهما حالة مبتغاة - يتمنّى أن يعيشهما وهو يجيب عن السؤال بكلمة "بخير" إذا استقرّ حاله، فلا نستطيع أن نسأله "كيف هو ترحالك؟" فهو يصبو إلى الحال. ولا نستطيع ترجمة "كيف الحال" إلى الفرنسيّة بـ "Comment es-tu? où êtes-vous?" فالعربيّ، بعكس العربيّ، يصبو إلى الترحال لأنّه يملّ من الحال والاستقرار وينشد الرحلات والاستكشافات، فالعربيّ أن يسأل "Comment vas-tu?" أو "Comment allez-vous?"، ولا يمكن أن تكون الترجمة العربيّة حرفيّة "كيف هو ترحالك؟"، بل "كيف الحال؟" من هنا لا نستطيع أن نترجم العبارة بحرفيّة بل بما تعني لشعبها. فالعربيّ بخير إذا كان

في رحلة تُخرجه من ملل الإقامة المستقرّة، أي من الحال التي كان العربيّ يصبو إليها، فإذا استقرّ حاله أضحى وأصبح وأمسى بخير.

ونعود أدرجنا إلى أوّل سؤال طُرح في المقدّمة متوجّهًا إلى معلّم الترجمة والتعريب، الأستاذ الراحل سليم شمالي، "كيف الحال؟" وليس "كيف ترحالك؟" "Comment allez-vous?". فهو المعلّم المشرقيّ العربيّ الذي سبر أغوار بحر اللغة العربيّة واصطاد منها كنوزها الثمينة بعناية من يصطاد أشهى ثمار البحر. هو مشرقيّ المنشأ وعربيّ الهوى وغربيّ فرنسيّ الثقافة في آنٍ واحد شأنه شأن كلّ أديبٍ ومثقفٍ لبنانيّ يراعي لغته الأمّ وينهل من بحر هذه اللغة حبر يراعه. لغته العربيّة الأمّ تلتقي لغته الفرنسيّة الرفيقة وتندمجان من دون انصهارٍ في لغة يفهمها الناطق باللغة المُنقل إليها.

بحر اللغة العربيّة، من محيطها إلى خليجها، كما بحار أشعارها، تعطش إلى الشواطئ التي أرسى فيها الراحل سليم شمالي سفينة النقل (الترجمة والتعريب) إليها والتي بواسطتها رمى الشباك التي اصطاد فيها غنى مفرداتها وتعبيرها.

وبحر اللغة الفرنسيّة يعطش إلى ميناء بيروت، تلك المدينة التي عاش فيها فأحبّ لغته الأمّ (العربيّة) وأتقن اللغة الثانية (الفرنسيّة) في حنايا إحدى مدارسها وهي مدرسة الأباء اليسوعيّين، وبين جدران المدارس التي علّم فيها أجيالاً من التلامذة عشقوا بفضل اللغتين فلم يتخلّوا عن لغتهم الأمّ المولّدة ولم يهملوا اللغة الثانية المرّيبة. وعليكم الالتقاء صدفةً بقدامى المدرسة التي علّم فيها، وتذكروا اسم سليم شمالي لتصغوا إلى كيفيّة ترجمة مشاعرهم إلى شهادات حيّة مؤثّرة حيال معلّمهم الذي لم تمخّ السنوات ملامح وجهه من ذاكرتهم، على الرغم من رحيلهم من المدرسة ورحيله هو من عالم اللغات البشريّة.

لذلك، تهديك عائلتك، بشخص ابنتك ندى شمالي التي قامت بجمع كلّ ما دونته بخطّ يدك في هذا الكتاب، خلاصة ما علّمته في تتقلّبك بين حال الترجمة وترحال التعريب، وما نقلته من معاني نصّ مكتوب (اللغة المصدر) بما يعادلها في النصّ المُنقل إليه (اللغة الهدف). وفاءً لك، ولأنّك كنت وفياً في محاكاة لغة

الآخر، إليك هذا الكتاب. فبعد النقل من عالم لغويّ إلى آخر، جاء موعد الانتقال من عالم إلى آخر، وبعد الرحيل، تبقى دروسك طيّ هذا الكتاب، يعرف منه الراغبون في الترجمة مصطلحات في أصولها وينهلوا من بحر كلّ لغة من اللغتين ما يمكنهم من الإرساء على شاطئيهما.

خاتمة

أما بعد، لن نقف اليوم على الأطلال لننتذكر ونخلّد ذكراك في هذا الكتاب، فلم تترك وراءك أطلالاً دائرة بل بنيت على الصخر جسر عبور لتعبير وتعريب هو قاعدة لـ "أصول" كما يرد في العنوان، جسراً لا يزعزعه اختلاف بل يوطّده من أجل التوجّه إلى الآخر بلغته هو. لذلك، نسألك اليوم، بلغتنا البشريّة: "كيف الحال؟"؛ لو كنتَ على الأرض، كنتَ أجبت: "بخير" وكيف لا، وقد نفّذت الرسالة التربويّة على أكمل وجه؟! ولكن، بما أنك في أبعادٍ تتخطّى الأرض ولغاتها وقواعد لغاتها، نستطيع أن نتخيّل جوابك ونترجمه لك وعنك: "هنا، حيث أنا، لا ترجمة لتعبير "بخير"، فبالرحيل، يصمت الجسد وتتكلّم الروح بلغة لا تُترجم، والترحال في هذا لا يخضع لحدود والحال هنا - حيث أنا - ليس كالحال على الأرض.

إطمئنّ، أيّها المعلّم الكبير، ما زالت لغة الضاد التي أحببتَ بخير، إن سألتنا "كيف حالها"؟ وما زالت اللغة الفرنسيّة التي أغنت ثقافتك بخير إن سألت عن ترحالها "Comment va-t-elle?". إنّ ثنائيّة اللغة في الترجمة علّمتنا لغة التواصل مع الآخر باحترام اختلافه، وعلمتها لطلابك معبراً تعبيري، من خلال التعريب، إلى ثقافة الآخر وحضارته الفريدة.

وفي نهاية المطاف، منذ بضعة أعوام، رحل مؤلّف مصطلحات في أصول الترجمة، الأستاذ سليم شمالي، إلى حيث تتوحّد اللغات في لغةٍ واحدة قبل انهيار برج بابل. رحل إلى حيث لا حاجة إلى ترجمة وأداة تواصل واتّصال، وترك لنا على الأرض لغةً تنتقل بين حالٍ وترحال.